

لغتنا القومية . . . والنص القرآني

د . سيد دسوقي حسن

في الأشهر الأخيرة ارتفعت أصوات تنادى بنقل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية من مواد المطالعة إلى مواد الدين . وترددت أصوات أخرى مستنكرة هذا النداء ، وشاعت بين الناس أقوال أن وزارة التعليم استجابت للأمر ثم كذبت الوزارة على لسان وزيرها ما أشيع .

وفي هذه الكلمة القصيرة نقدم اقتراحا يتفق بالأذن الله مع روح حوارنا وقيل أن نقدم اقتراحنا لأبد أن نشير إلى قضية تعلم اللغة ، وأن اللغة ملكة وليست صنعه فيعلمنا صاحب المقدمة العلامة ابن خلدون أن صناعة اللغة تختلف عن ملكة اللغة فيقول في الفصل خمسين (فصل في تعليم اللسان المطري) عن كيفية اكتساب هذه الملكة ما يلي :

"أعلم أن ملكة اللسان المطري قد ذهبت وفسدت ، ولغة أهل الجيل كلها مفاتيح للغة مخر التي نزل بها القرآن ، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمنا . إلا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر ، كان تعلمها ممكنا شأن سائر الملكات . ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف، ومخطبات فحول العرب في أسماهم وأشعارهم ، وكلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم ، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظور والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ، ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عبارتهم ، وتاليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم ، فتحمل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد لكثرتها رسوخا وقوة وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المصنوع نظما ونثرا . ومن حمل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مخر ، وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها ، وهكذا ينبغي أن يكون

تعلمها . والله يهدى من يشاء بفعله وكرمه " .

ومن ثم كان انتهاج المدرسة الحديثة مواد المطالعة والنصوص كطريقه
واسلوب لتعليم اللغة مدخلا سليما في الشرق والغرب سواء . ولما كان
القرآن الكريم هو قمة البلاغة في اللغة العربية كان لزاما على مخطط
البرامج العربي أن ينهل من هذا النبع العذب نموا يشدو بها الطلاب
لحنا جميلا لتستقيم بها سنتهم وترقى بها اساليبهم . . . ولم يكن
ذلك نهج المسلمين فحسب بل كان هناك كثير من اهلنا النصارى يحفظون
القرآن ويرسلون اولادهم الى مكاتب قراهم ومدنهم لتستقيم السننهم
وتتحسن اساليبهم ولم يكن هؤلاء يخشون على اولادهم أن يصيبهم مكروه
عقيدى او سلوكى او فكرى . . . ذلك ان رسالة القرآن تكمل رسالة
المسيحية الغراء ، وكلاهما من نبع واحد وما يدعو القرآن اليه من مكارم
الاخلاق هو هو ما تدعو اليه المسيحية السمحة . . . وكل انبياء المسيحية
هم انبياء الاسلام ثم زاد الاسلام فوق ما اتت به المسيحية شريعة غراء
هى ملكنا جميعا ، نحتكم اليها فى احوالنا المدنية ، ونسعى ان يكتمل
الاحتكام اليها فى كل شئون حياتنا . ولم يبق بعد ذلك الا بطع آيات
قليلة تتعلق بالعقيدة ويخالف بها الاسلام العقيدة الشائعة بين كثير من
اهلنا النصارى . . . وهذه لا يظنها مخطط عاقل للبرامج فى مواد النصوص
او المطالعة الا اذا كان مغرضا ويريد بذلك احراج عقائد اولادنا النصارى
وبرغم كل ماتقدم . . . ولان الاسلام يرفض كل انواع القهر
الاجتماعى ومنها القهر الثقافى حتى انه ليسمح للمجوس أن يتزوجوا حسب
شريعتهم امهاتهم واخواتهم ، ويرفض الحسن البصرى ان يستجيب لامير
المؤمنين عمر بن عبدالعزیز عندما يستنكر ان يكون على وجه الارض من
يتزوج امه او اخته وان ذلك مخالف للشريعة الحاكمة ، فيكتب له الحسن
البصرى : هذا مما جرت به عقائدهم ، وانما انت متبع ولست مبتدعا ،
فالزم والسلام .

أقول . . رغم كل ما تقدم ، إلا أنني أقترح على واضعي كتب النصوص والمطالعة أن تكون هناك نصوص اختيارية يختار منها الطالب ما يشاء ، وتكون صيغة الامتحان بحيث تسمح بهذه التعددية . هذا هو الحل الوحيد المقبول ، أما أن ننقل النصوص لمادة الدين ، فهذا تحجيم لتعليم اللغة يفرضه فرد أو مجموعة على الأغلبية الساحقة من مسلمين ومسيحيين يريدون أن يتعلموا لغتهم من أعظم نمر في أي لغة إلا وهو النص القرآني .

ففي ظل هذا الاقتراح يستطيع أولئك المسيحيون أو المسلمون الرافضون لأن يسمع أبناءهم آيات من القرآن أن يختاروا نصوصاً أخرى ليمتحنوا فيها . أما الأغلبية الساحقة من المسلمين والمسيحيين الذين يحبون أن يتعلم أبناءهم اللغة من أعظم نمر فيها ، والذين لا يرون حرجاً أن تتسرب قيم القرآن وأخلاقه وأمثاله بما تحمل من حطارة راقية إلى نفوس أبناءهم مع احتفاظ كل صاحب عقيدة بعقيدته . . . أما هؤلاء فلهم الحق كل الحق أن تظل آيات الكتاب الكريم نصوصاً سامقة في كتب المطالعة والنصوص وأن ينصحوا أبناءهم باختيارها وحفظها وفهمها . . . ذلك أقرب للعدل وأهدى للتلميذ هو اليوم .